صدى العدوان الثلاثى فى الأدب العراقى

د. سهيلة الحسينى

عندما نبحث فى قضية وطنية تاريخية حركت وجدان الشعب العربى (كقضية العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦) بسبب تأميم الحكومة المصرية لقناة السويس وإدارتها. هذه القناة التى كانت أول قناة صناعية شقتها يد الإنسان المصرى وهو يصنع الحضارة البشرية ، على عهد "سنوسرت الأول" منذ ما يقرب من أربعة الآف عام ، لتغدو فيما بعد محطة تلتقى عندها دول العالم فى حركة تجارتها ومصالحها عبر البحار ومن خلال هذا الشريان الحيوى غدت كرمز للسلام العالمى[١].

ومن أجل تسليط أضواء صدى العدوان على مصر فى نفوس أدباء الطرق ، ذهبنا فى محاولة استنطاق التاريخ القديم تمهيداً لمعرفة الأجواء السياسية القائمة بين هذين الشعبين اللذين يساميان بعضهما عراقة وحضارة ، إذ تلقى بظلالها بقوة على الموقف الأدبى لنجد وبكل أسف أن علاقتهما تتسم بروح التباعد أكثر منها تقارباً. لذا إذ استثنيا فى العصر الحديث مرحلة حكم الرئيس "عبد السلام عارف" ذات الصلة المتينة بالرئيس جمال عبد الناصر. كذلك المرحلة القديمة المتصلة بحكم ملوك الكاشيين فى بابل منذ حوالى ألفى سنه ق.م.

وكمثال نجد أن العلاقة بين أحد ملوكهم "كارينداش" ومعاصره الفرعون "تحتمس الرابع" علاقة ودية تبودلت فيها المراسلات الأخوية والهدايا وازدهرت التجارة، وتوجب هذه العلائق الوثيقة بالمعاهدة بين الأسرتين الحاكمتين. أما فيما عدا ذلك لا نجد أثرا لتقارب ملموس على صعيد الحكام وشعوبهم أيضا لعل أقساها وأعنفها ما كان فى عهد "دولة

أشور" التى مثلت حروبها الطاحنة الوسيلة الوحيدة القائمة بين وادى الرافدين. فآشور التى اعتمدت نظام القوة العسكرية المتعالية والقائمة على مبدأ الهجوم، مضت تبسط نفوذها على الشام وفلسطين مما هدد كيان مصر التى ترى أنها وحدها لها حق السيطرة على هذه الأراضى التى أخضعتها على عهد تحتمس الأول والثالث بعد طرد الهكسوس واستعادت قوتها بأن بسطت سلطانها فى غرب آسيا حتى نهر الفرات.

لقد قامت أولى الصدامات بين آشور ومصر على عهد الملك سرجون الثانى حوالى سنة ٧١١ ق.م، إذ بدأت آشور تسيطر على سوريا وفلسطين مما أوغر صدر مصر التى كانت تساعد وتحرض وتدس أمراء لهذه الممالك حتى انتهى الصراع بدخول بعض ملوك آشور الى العاصمة "منف". على أن مصر تمكنت بعد زوال مملكة آشور الثأر لنفسها فى العصر البابلى الثانى على عهد "نخاو الثانى".

ولقد أحدثت هذه الحروب شرخاً عميقاً فى نفس الشعبين لآماد بعيدة خاصة أن هذه الشعوب كانت شديدة الإرتباط بحكامها. ولعل من المفارقات العجيبة أن نجد بين ملوك آشور – وكلهم بالطبع اتسمت حروبه بطابع القسوة المتناهية والوحشية حيال أبناء الدول المغلوبة – من يمتلك ذائقة أدبية مرهفة كسرجون الذى حارب حلفاء مصر حيث اعتنى بمكتبة ضخمة حوت شتى المعارف الإنسانية والعلمية كما شهد عصره نشاطاً فكرياً كبيراً.

أما الملك "آشور بانيبال" الذى دخل مدينة طيبة ودمرها كان كصاحبه يمتلك حساً أدبياً عالياً وولعاً بالبحوث التاريخية التى عنى بها كثيراً. كما كان يفخر بممتلكاته الأدبية فيؤلف ويقوم بنفسه بكتابة مؤلفاته على ألواح الطين. ومن جملة أقواله المؤرخة لأعماله : "من أسباب سرورى أن أكرر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة باللغة السومرية والكتابات الأكادية التى تصعب

قراءتها"[٢]. وقد أمر هذا الملك العاشق للحرب والمعرفة معا بنسخ كل ما خلفه السومريون والبابليون من آداب ووضعها فى مكتبته فى نينوى التى قدرت محتوياتها بثلاثين الف لوح طينى، وجدت سليمة بعد مرور خمسة وعشرين قرنا من الزمن. كما وصفت بأنها "أثمن ما فى العالم من الذخائر التاريخية"[٣] ووجدت محتويات المكتبة مصنفة ومفهرسة ليسهل تناولها. وإذا ما قيل بأن أهم ما يخلد ذكر آشور فى تاريخ الحضارة هو مكتباتها "[٤] فهى أيضا كاشفة لأقدم ما بقى لدينا من الكتب فى علم التاريخ.

ورغم تباعد أصحاب الواديين العريقين وجدانيا وجغرافيا .. فقد شهدا تماثلاً فكرياً وأدبيا من خلال ما رصدته آثارهما الرائعة. ففى معاملة الوالدين – على سبيل المثال – يطالعنا النص السومرى :

" أطع كلام أمك كأنه أمر إلهى "[٥] يقابله النص الفرعونى

" كم هو جميل أن يطيع المرء أباه .. إن ما يريده الرب هو الطاعة " [٦]

وفى إبداعها الفكرى وخبرتها لأهمية الكتابة ، يقول النص السومرى :

" إن من يريد الكتابة .. عليه إن ينهض مع الشمس "[٧] وفى النص الفرعونى : "وطن نفسك على أن تكون كاتبا حتى تستطيع أن تدير أمور العالم كله .. "[٨]

إن المرء ليحزن أن مضت هاتان الدولتان فى صنع حضارتهما الأولى منفردتين " يوم كانت الدنيا طفلا يحبو فى جهالة القرون "[٩] حتى بهرتا العالم فيما بعد وكنت أتمنى لو حدث تزاوجاً بينهما إذن لأمدتا الساحة الثقافية بسنا نور لم تعرف له الدنيا سطوعاً.

وإذا طوينا هذه الصفحة الثرية من تاريخنا القديم، وإنتقلنا الى تاريخنا الوسيط وتحديداً مرحلة الفتح الإسلامى حيث وقوف مصر والعراق لأول مرة معا تحت المظلة الإسلامية لتتمخض النتائج عن طفرة فى مسار علاقتهما. فالدين الجديد المشترك استطاع أن يعرب الدولة المفتوحة ويؤاخى

بينهما رغم تباين الأعراق والقوميات وبالتالى تلاشت تلك الصراعات والأحقاد المتوارثة لتظهر ثمارها فى العصر القيادى للحضارة الإسلامية حيث التواصل العلمى والفكرى والدينى والأدبى تمثل فى نتاج أربابها وتنقلهم بين القطرين. وشهد العصر العباسى الأول إبان قوة الخلافة ومركزها بغداد عصراً من الأزدهار الأدبى والفكرى استطاعت معه استقطاب علماء العالم لمركز امبراطوريتها كان منهم العديد من علماء مصر وفقهائها يتصدرهم الأديب والشاعر الإمام الشافعى (رضى الله عنه) حيث دخل بغداد ١٩٥ هـ ليستقر فى مصر سنه ٢٠٠ هـ حتى وفاته .. كما شهد العصر الوسيط تبادل أدوار العلماء أيضا حيث وجدنا ابن الهيثم (٩٦٥ – ١٠٣٩م) يغادر البصرة الى القاهرة زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى، ويعرض عليه مشروع تنظيم جريان نهر النيل، وإن لم يخل العصر العباسى الثانى رغم ضعفه من صراع سياسى بين بغداد ومصر التى مثلت أول دولة تنسلخ عن جسد الخلافة وتعلن استقلالها ثم لتتشكل –فيما بعد– الخلافة الفاطمية.

ومع كل الأدوار الإسلامية لم تكن عليه الأجواء السياسية ما شهدته العصور القديمة من قطيعة بينهما. فنجد على سبيل المثال أن من أدباء العراق "عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢–١٢٣١م) ، قد هاجر الى مصر واستوطنها وله فيها مؤلفات منها الإفادة بأرض مصر، وشرح فصول القراط وعندما حدثت نكبة الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ شهد علماء العراق وأدباؤها وحتى حرفيوها "هجرة معاكسة" إذا كانت مصر ملاذهم وهى تفتح ذراعيها لهم. بل وجدنا من آثر البقاء فيها !. وامتد هذا النزوح ليشمل أدباء "الموصل" التى كانت حينذاك أحد المراكز الثقافية الشهيرة ويتوجه العلماء إليها، إجتاحها التتار سنة (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢ م) ليولى أحد أبنائها الأديب والشاعر الساخر والطبيب "ابن دانيال الموصلى" (٦٤٦–٧١٠ هـ) وجهته نحو مصر التى

استوطنها وذاعت شهرته فيها ، وكان يشهد بعض مجالس السلطان الأشرف قلاوون [١٠].

لقد شهدت هذه الفترة حركة تزاوج فكرى وثقافى وعلمى وازدهرت فى ظل الأوضاع السياسية حينذاك ، كما أن هذا التقارب بين الشعبين أفرز حكايات شعبية وأسطوريه مستوحاة من لون أدبى تراثى شعبى تتناقلة الأجيال خاصة فى صعيد مصر المحكوم بعاداته المتوارثه عن شاب وشابة أحبا بعضهما ولكون التقاليد القبلية الصارمة تحول دون زواجهما فقد وجدا فى الهرب الى العراق منفسهما، وهناك عاشا حياة هادئة. ولكن الأقدار تشاء أن يموت أحدهما فى شمال بغداد والآخر في جنوبها، لتنمو نخله على قبر كل منهما يمتد سعفها عاليا فى الأفق حتى يلتقى ويغطى سماء بغداد حبا وظلالا. هذه الحكاية غدت مواويل فى صعيد مصر[١١] تغنى.

والسؤال .. لماذا اختار هذان العاشقان بغداد-العراق دون سائر الممالك يومها ؟!.

هذه الحكاية التى نمت فى صعيد مصر وترعرعت فى العراق معطيات أخرى لالتقاء هذين الشعبين من خلال أنواع الثقافات المشتركة وتنامى العلاقات الودية بينهما.

شكل إنتهاء السيادة العثمانية بفعل الهجمة الإستعمارية الغربية، تفكك منظومة الهيكل السياسى للعرب، ولكن لتبرز قضية جديدة هى فكرة انبعاث المد القومى والتأكيد على الوجود العربى فى فترة فجر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر من خلال ثقافته وتجاربه ومصالحة المشتركة، وأيضا لتماثل الظروف الإجتماعية والسياسية.

فى هذا المنعطف التاريخى الجديد كان الشعر يمثل الوقود الروحى والصوت العالى لتوحد العرب ، ومن طلائعه الفكرية والأدبية الشاعر العراقى الكبير عبد المحسن الفاطمى الذى اتخذ من مصر موطنا ثانيا له

يصلنا صوته الذى يصبح بحسه القومى معبراً عن الحنين والتوحد والتفاعل الوجدانى المشترك عبر ترنيمة يتعانق فيها الحنين والآلم :

أحـــن إذا قبـــل العـــراق وأنحنـــى ... وأشـــهق إذا قبـــل الـــشام وأزخـــر
وأطرق إذا قيل الحجاز علـــى جـــوى ... وأعجـــب إذا قبـــل مـــصر وابهـــر
جميع بلاد العرب فـــى القـــدر واحـــد ... إذا وازنوا البلدان يوما وقـــدروا[١٢]

لقد سجلت الأعوام (١٩١٧ – ١٩٣٩ م) ذروة التأكيد على الوجـــود القومى، بل ونجد اختلاط الشعراء بين قطرى مصر والعراق أخذ خطاً أعمق وأشد اندفاعا وحدة حتى بلغ تدخل بعضهم فى الشؤون السياسية للقطر الآخر لدرجة عرض نفسه لغضبة حكامها [١٣].

ونحن بإزاء لون من الوان التجاوب الروحى حيث نجد الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى عندما يبعد عن وطنه تكون مصر أول ما تتجه إليها بوصلة تفكيره. ومع بعض نسيج مشاعره النفسية الموزعـــة بـــين العـــراق ومصر :

لـــيس مـــن بعـــد العـــراق قـــصر ... غير مـــصر ومـــصر أخـــت العـــراق
فى رحيلى عن العـــراق الـــى مـــصر ... مـــصابى ، معـــادل لإشـــتياقى[١٤]

وفى إنصهار وذوبان مشاعر أبناء القطرين نتـــصفح أوراق "الـــدكاترة" زكى مبارك "من وحى بغداد"، فنحسب جيشان عاطفته شلالا قوى الإندفاع يرمى برذاذه فينعشنا . فهو فى حبه الدنف للعراق يعبر عن روحة الـــشاعرة الدائمة الهيمان فى آفاقه :

" وسيأتى يوم يعذرنى فيه من اتهمونى بالإسراف فى حب البلاد التى عرفت بكاء الحمائم .. سيعرف اخوانى فى مصر أننى بنيت لهم صرحاً من الود فى وطن نبيل هو العراق ، سيعرف أخوانى أن غيرتى على سمعة العراق ستضاف الى المحاور المصرية ، وسيقول المنصفون إن المصرى حين يغترب لا ترى عيناه غير الجميل من شمائل الرجال .. "(١٥)

وفى موضع آخر ترتفع حدة نبرات هذا الجيشان العاطفى المتوار فى حبه لمصر من خلال حبه للعراق وسفارته الأدبية لمصر :

" ما ذقت طعم الحياة إلا فى العراق

ولا رأيت صدق القلوب إلا فى العراق

ولا عرفت جمال النيل إلا بعد أن رأيت لون مائه فى دجله والفرات"(١٦)

ولعل المنصفين يعذرون الدكتور زكى مبارك عشقه للعراق بعد أن ظلم فى مصر، ليجد فى العراق قلباً حنوناً ينبض بحبه .. وأناسا قدروا له مواهبه الأدبية.

والأمثلة السابقة بسياقها الأدبى الرفيع تقدم صورة تاريخية مضيئة لتبادل الأدوار.

وكما ظهرت الإشراقات والتفسيرات المؤصلة لتاريخنا العربى والإسلامى فى مؤلفات اساتذتنا منهم الدكتور عبد العزيز الدورى وكتابه (نشأة علم التاريخ عند العرب) الذى يضرب على وتر الوحدة بينهم كمجتمع وتاريخ. فالمحن والمأسى عمقت التلاحم بينهم فوقفوا فى وجه الإستعمار كبنيان مرصوص.

وما بين عام ١٩٤٩-١٩٥٦م ، كانت الأمة العربية من مشرقها حتى مغاربها تشهد تحولات سياسية مصحوبة بفترة غليان فى سبيل الحرية السياسية والاجتماعية. وكان لقيام الثورة فى مصر عام ١٩٥٢م إنعكاسها على العرب "بتقوية الأمل فى تحقيق عالم مختلف وأمه عربيه مرتبطة بثورة

إجتماعية حقة لتتبوأ موقعها المناسب فى العالم"[١٧]. وعندما وقع العدوان الثلاثى على مصر تحرك العراقيون لمناهضة سلطتهم الحاكمة والتطلع للوقوف مع مصر فى خندق واحد سيما والشعب العراقى كان ينوء بضغوط سياسة حكومته المستمرة لإبرامها المعاهدات الجائرة مع الإنجليز وقمع حرية الشعب الى جانب بث سمومها من إذاعة بغداد ضد مصر وتوجهها القومى لتتوج هذه السياسية البعيدة عن روح وحدة الشعوب العربية بـ "حلف بغداد"[١٨] السئ السمعة كما يظهر العراق قوة متزعمة للكتلة التى تناصب مصر وحليفاتها العداء.

أجل .. لقد كان لظهور عبد الناصر وبرنامجه السياسى الذى يدعو الى وحدة الشعوب العربية ومقاومتها الإستعمار وعملاءه ، وتبنيه سياسة عدم الإنحياز إضافة الى خطاباته ووسائل إعلامه الموجهة للشعوب العربية يمثل تهديداً لأنظمتها وخاصة نظام العراق الذى لعب دوراً قيادياً بارزاً ومناقضا تماماً لدور مصر.

ومعذرة لهذا الاستطراد التاريخى الذى أراه جزءا متمما لموضوع البحث. فلقد مضى العراقيون يتابعون أحداث "بورسعيد" بعد هبوط جنود المظلات البريطانية فى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ م ، ليليها إنزال قوات المظلات الفرنسية بربع ساعة، ليحولوا زرقه سمائها التى تحاكى بحرها الى جحيم بفعل قنابلهم ليسقط على أرضها الآف الشهداء. وإستكمالاً لهذه الجريمة التاريخية (الأنجلو- فرنسيه) كان الغزو البحرى لشواطئها فى ٦ نوفمبر لتستباح هذه المدينة الوادعة المطمئنة فى أحضان البحر بكل الوان الخسة والإنحطاط التى تعاقبت والتقت خيوطها التآمرية مع القوات الإسرائيلية التى شكل تحركها مفاجئة للقيادة المصرية لوجود هدنة بينهما، إذ كانت أول من سارع بالإنزال فى سيناء تعضيداً للإتفاقية السرية بينهم. ورغم بشاعة

الجريمة وعظمها بقى أهالى بورسعيد رجالاً ونساءاً يسطرون ملاحم بطولة خالدة حمدها لهم التاريخ العربى والإنسانى.

على الجانب الآخر كان يحز فى نفوس العراقيين سماح النظام العراقى للطائرات الإنجليزية الإنطلاق من قاعدتى الشعيبة فى البصرة، والحبانية فى الرمادى لضرب مصر. لذا برز الأدباء والشعراء "كقادة حقيقيين يمسكون بزمام توجيه الشعب المحتقن سياسياً والذى ربط إنتعاش آماله بثورة مصر وأهدافها وبدت مقالاتهم وخطبهم وقصائدهم الداعم الحقيقى للتظاهرات التى نفر لها الطلبة وسائر شرائح الشعب .. هذه الجموع الثائرة انطلقت من ساحة "السويدى" مارة بجسر "مود"[١٩] ولم يجد تعطيل المدارس والجامعات فتيلا لوقف التظاهرات رغم إعلان الأحكام العرفية وفتح بوابات السجون والمعتقلات وملئها بالمواطنين الذين ساقتهم السلطة ألوان العذاب حتى خضعت لهذه الإنتفاضة الشعبية فى طول البلاد وعرضها – والتى لم يتحسب لها – بإيقاف الإنجليز عن هاتين القاعدتين.

لقد برز الأديب العراقى كأحد أهم الروافد المقاومة للمحتل وتفعيل دوره القومى ، لذا اعتبر الصانع الحقيقى لهذه الانتفاضة التاريخية التى أشعلت فى ذاته حرائق الثورة على النظام المستبد كان من تداعياتها الإطاحة به وقيام ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ م.

لقد مثل العدوان قاسماً مشتركاً للهم الذى كانت تدركه كل شرائح الشعب العراقى خاصة شباب الجامعة .. لقد كنت شاهدة عصر إبان تلك المرحلة !!.. كنا يومها نعيش فى مدينتا "الموصل" عندما أغلقت جامعة بغداد – وهى الجامعة الوحيدة يومها. وعاد أشقائى الذين شاركوا فى تظاهرات الطلبة ، ولقد رأيت آثار ضرب أفراد الشرطة لهم .. كدمات زرقاء وحمراء على سيقانهم وسواعدهم .. ومن خلال أحاديثهم عن معاناة مصر ارتبطت أنا الأخرى بها وجدانيا رغم حداثه سنى فى تلك الحقبة.

ولئن افتقد شباب العراق الذى كان يتحرق شوقا للسفر الى مصر من خلال الانجذاب الروحى الذى يسرى فى عروق أخوة الدم والدين والتراب والمصير المشترك ، بسبب تعنت النظام الذى مثل حاجزاً منيعاً يحول دون الوقوف فى جبهة واحدة مع شباب مصر المقاوم للعدوان الجائر .. فقد وجد الأدباء ضالتهم، لذا ذهبوا يصوغون من ذوب روحهم ونفثات قلوبهم لوحات شعرية تعبر عن هاجسهم واعتزازهم بكفاح الشعب المصرى ، وإعجابهم بمصر الثورة تلك التى مثلت أهدافها الشوكة الواخزة فى جسد الإستعمار الإنجليزى والفرنسى خاصة بعدما رأوا فى تأميم قناة السويس ضربا لمصالحهم فالتقوا مع مأرب اسرائيل لإجهاض ثورتها !..

والحق .. بدأ الأدباء فى هذه المرحلة ألصق بهموم أمتهم وأشد التزاماً ووعياً .. وبعداً عن ذاتيتهم وأكثر إنتفاءا وتنظيراً ونشراً للثقافة الوطنية وتصعيداً لمقاومة المستعمر الذى وجدوا فيه تهديداً لهويتهم وكيانهم الحضارى.

لقد ألقى الشعراء بثقلهم الأدبى فى هذه المعركة .. فأدب المقاومة يبرز ويتوهج عندما تواجه الشعوب قوى استبدادية من داخل الوطن ، أو غازية من خارجه. عندها يشحذ الأدباء وهم طليعة الشعب أسلحتهم لرفد معركتهم بلون من ألوان المقاومة.

لقد مثلت الكلمة الرافضة للظلم أحد أهم الركائز الفاعلة التى استثمرها الأدباء لتقويض عروش لم تقو الأسلحة الميدانية على حمايتها. وشعراؤنا الذين طالما تغنوا بثورة مصر وقائدها هبوا كالإعصار فى وجه المحنة التى اكتوى بنيرانها شعب مصر لكأنها محنتهم القومية. لقد بات الشعر قوتهم اليومى ومظلة تتوحد تحتها أصواتهم بعيداً عن مناهجهم الفكرية واختلافاتهم السياسية وتنظيراتها.

ولم تكن الشاعرة العراقية دون أخيها الشاعر ثورة مثلت ريادتها "رباب الكاظمي" ليليها جيل الدكتورة "عائشة وهبى الخروجى" التى سجلت عشقها لمصر قصائد تذوب وجداً ، خاصة بعد زيارتها لمصر.

أما الشاعرة "نازك الملائكة" .. فكانت شعلة تلتهب بوقود الوطنية ومفردات الوحدة العربية، وكان لقصائدها فى حب التى اختارتهم قطر لهاجه المبرم، مذاقه الخاص.

على أن الشاعرة العراقية المبدعة "باكزة أمين خاكى" وهى تلميذة الشاعرة عائكة الخروجى .. لا نجدها تترجم عشقها لمصر باتخاذها وطناً ثانياً .. إنما وجنسية ! .. فهى (العراقية المصرية) لقد وجدنا باكزة أعلى الأصوات المنسوبة ثورية .. ولكم حوكمت وسجنت وعذبت بسبب قصائدها التى تدعو الى الثورة والإطاحة بالسلطة خاصة قصيدتها "لسنا عبيد" و "ثورة الأحرار" و "ثار العبيد" كما أصيبت برصاص شرطة السلطة الملكية خلال مظاهرة وثبة الطلبة عام ١٩٤٨ م .. ورغم جرح صدرها اجتازت الجسر الذى استشهد عليه بعض الطلبة ولقبتها بعض الصحف العراقية يومها بفتاة الجسر ! .. ولها قصيدة متميزة تروى لأحفادها هذه الوثبة بعنوان "أنشودة الجسر" (٢٠).

وبرغم ثوريتها ووطنيتها الأصيلة سأختار قصيدة فى حبها لمصر وهى تزورها لأول مرة ضمن وفد طلبة جامعة بغداد .. هذا التواؤم الروحى فى عشق العراقى لمصر انعكس أصداؤه فى قلب شاعرتنا فخرجت علينا بقصيدة "سلام من العراق" وقد ألقتها فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ م ومنها :

بعث العراق سلامه لربباك ... وشدت صبا بغداد فى ذكراك
وتمايلت أمواج دجلة فى منى ... وتعطرت نسماته من شذاك
ما كاد يؤطى بالكنانة ركبنا ... حتى ابهرنا من عظيم سناك
يا مصر يا أخت العراق تحية ... من عاشق منى النهى بلقاك

مـــصر الحبيبـــة والقلـــوب جميلـــة ... وسرحت قـــرب النيـــل فـــى نجـــواك
وعجبت إذا يـــزوى الجمـــال بأســـره ... ويـــذوب فـــى طمـــى الـــورى إلاك
هيهـــات أن أرضـــى بـــديلك موطنـــاً ... شل الفـــؤاد إذا هويـــت ســـواك[٢١]

بهذه اللغة الرائقة والمجنحة تعبر ابنة العراق .. عن سحر مصر الـــذى جذبها ولم يدعها إلا وقد غدت زوجة لرجل مصرى مرموق يعمل فى منظمة الأمم المتحدة.

وأمام العودة الى أحداث بورسعيد، والعدوان الغاشم على مصر نجد مـــا من مفكر أو أديب أو صحفى أو شاعر يمتلك حساً وطنياً وقوميا لم يـــشارك بزرعه ألغاما من نثره أو شعره يود تفجيرها بوجه هذا العدوان الذى شـــكل منعطفاً سياسيا وتاريخاً هاماً لتحرك الشعب العراقى من أجل تحريـــر ذاتـــه ومن خلال التطلع إلى ثورة مصر الرائدة.

وإذ أدى أدباء العراق دورهم التاريخى تجاه محنة مصر رغم محاولـــة السلطة تكسير اقلامهم وتكميم أفواههم، فثمة سؤال يلح على ويلقينـــى فـــى دوامة الحيرة وهو لماذا أفتقد صوت "نازك الملائكة" فى هذه المناسبة وهـــى الشاعرة المفعمة وطنية وتلاحماً مع قضايا أمتها خاصة وقد ورثت عن أمها الشاعرة الطليعة (سلمى) أم نزار الملائكة ، توجهها القومى ومدها الثورى، تراها ارتضت الوقوف فى منطقة الظل من هذا العدوان وهى التـــى طالمـــا تغنت بثورة مصر وأنشدت لرئيسها ولدقات ســـاعة العمـــل الثـــــورى، ولشمسها ونيلها ولوحدتها مع سورية، وهللت لنصر عبور قواتنا المـــصرية القنال فى العاشر من رمضان . [٢٢]

وهى أيضا من ألقت عليها الدكتورة عائشة عبد الرحمن وشـــاحا هـــو إهداؤها الذى تصدر مؤلفها "الشاعرة العربية المعاصرة" (الى صديقتى نازك

الملائكة شاعرة العصر التى حققت وجودنا الشعرى بأصـــــالة واقتـــدار، تحية إكبار ومودة ..). الحق .. لقد قرأت أعمالها الكاملة التى تزخر بفيض المناسبات الوطنية التى غطت عالمنا العربى، ومن يقرأ لها قصيدة عن حرب لبنان قبل ٣٣ عاماً يخالها كما لو نظمت هذه اللحظة.

هذه الشاعرة الشجاعة .. لم ارتضت الصمت أمام بطولة بورسعيد وهى التى القت عصا تسيارها فى مصر التى اختارتها وطنا آخر ؟! .. الحقيقة لا أجد تفسيراً اللهم أن هول الصدمة جعلت القوافى تستعصى عليها.

وأمام جهاد بورسعيد وصمودها سطر طليعة شعراء العراق الثوريـــون قصائدهم ملاحم تحكى كفاح شعب دفاعاً عن وطنه، ومـــن هـــؤلاء شـــاعر العروبة "محمد مهدى الجواهرى" الذى تقلت دواوينه ليس فى حب مصر بل وفى رموزها الأدبية والسياسية أيضا. فمن يقرأ أعماله الشعرية الكاملة يجد فى طريقه سلسلة ذهبية تنتظم انتظاما عقد من اللآئى ..

لقد أهدى الجواهرى من مدينة دمشق قصيدته المعنونة "بورسعيد" تقديراً وإعجاباً بصمود أهلها ومقاومة الشعب المصرى دفاعاً عنها، ومما جاء فيها:

كنانـــة الله اســـلمى إن المنـــى ... دونـــك لغـــو .. والحيـــاة باطـــل
كم غاص فى رمالك الـسمر غـــو ... غار .. وكـم ديـست بهـا جحافـل
خـــط أبـــو الهـــول لهـــا مـــصابراً ... تعرفـــه الأغـــوار والمجاهـــل

••••••••••

حتى يقول :

واصـــطرع الباطـــل وهـــو فـــارس ... مـــدجج .. والحـــق وهـــو راجـــل
مـــات الـــضمير فانطفـــا.. واتقـــدت ... مـــن حمـــم القـــواذف المـــشاعل
وابتـــــدرت عـــــوالم تـــــساءل ... والله والـــشعب الأديـــى فاعـــل

••••••••••

كنانـــــــة الله ولله يـــــــد ... تلـــوى يـــد الطـــاغوت إذ تـــصاول
صبر لحين يـــدرك البغـــى الـــونى ... صـــبراً ليـــوم تكـــشف المقاتـــل
صـــبراً علـــى حنظلـــة .. فكريـــة ... تخجل مـــن حريرهـــا الحناظـــل[٢٣]

فكل ما رصده الشاعر فى قصيدته يمثل رجع صدى لموقف رافض لهذا العدوان المتبربر. ونلاحظ استهلاله بعظمة مصر من خلال عمق تـــاريخى وحضارة مبدعة .. وتأثيرات قادمة من العصور تتجسد فى رموزها كالهرم وأبى الهول .. وإنسانها المبدع وموقعها العبقرى، منظومة مكنتها من تساقط الغزاة والطامعين تحت قدميها.

لقد زاوج شاعرنا بين الصورة التراثية الموغلة فـــى القـــدم .. وبـــين الصورة البطولية المعاصرة . فالشاعر يعلم تماماً أن مصر ليـــست طريـــدة سهلة للعدو المغير مهما جند من أســـلحة لـــصيدها ، فـــشعبها عـــصى .. والشعوب التى تمتلك رصيداً راسخاً متجذراً من حضارة عريقة شامخة محال أن تقهر أو تذل إذا ما دهمتها الخطوب . فمخزون القيم الدينيـــة والإنـــسانية تشعل فى روحها وقود الإستماتة دفاعاً عن أرضها وإنسانها. والشعوب الحية هى التى ينتصر لها الحق.

ومـــن بغداد التى غطت شوارعها التظاهرات المشتعلة غضباً فى تلـــك الفترة، وقف شاعر الثورتين (ثورة تحطيم الشطرين فى القصيدة .. والثورة على النظام الحكم إنذاك)، "بدر شاكر السياب" الذى وجد متنفسا للتعبير عن تمرده .. وهو الشيوعى الذى طالماً طورد وسجن بسبب فكره هذا ، سرعان ما انسلخ عنه بعد ثورة الموصل عام ١٩٥٩م ، تلك المدينة التى اســـتبيحت بشاعة من قبل غلاة الماركسية ليبمم وجهه نحو خط ايديولوجى جديد مرتبط بالهم القومى العربى.

لقد استغرقت السياب حالة شعورية إزاء العدوان الثلاثى لـذا تفجـرت شاعريته وكأنها بركان يقذف بحممه فى كل اتجاه ، منها قصيدته التى أهداها إلى أهالى المحافظة الصامدة وعنوانها "بورسعيد" وكأنه اتخذ مـن إسـمها وساماً يحلى صدر الشعراء كونها تحملت العبء الأكبر من هـذه الحـرب الجائرة. وفى قصيدته هذه نجد تعانق الشعر العمودى بالـشعر الحـر بمـد سمفونية متناغمة القوافى .. كما نلحظ فى بعض نسيج نصوصها لكأنما أهل العراق يعانقون أهل مصر ! .. ومن بعض مقاطعها :

يا حاصد النار من إشـلاء قتلانـا ... منك الضحايا ، وإن كـانوا ضـحايانا
حبيت بورت سعيد من مـسيل دم ... لـولا إفتـداء لمـا يغليـه ماهانـا
حبيت من قلعـة مـا آذ كأهلهـا ... بحـب الـسماوات إلا خـف إيمانـا
يامرفأ النور ما أرجعـت وادعـة ... من غيـر زاد ولال آويـت قرصـانا
فالويل .. لو كان للعادين ما قدروا ... لانهد مـن حاضـر مـاض فأخزانـا
فلا أتبنى هرمـا بـان ولا لبـست ... تيجانها ، فى انتظار الروح ، موتانـا
ولا تفجـر فـى ذى قـار فتيتهـا ... ولا تنفـست الـصحراء قرآنـا
حبيت موتى ، وأحيـاء ، وأبنيـة ... مستـشهدات أو استعـصب أركانـا

من أي مارئة ؟ .. من أى قيثار
تنهل أشعارى ؟
من غابة النار
أم من عويل الصبايا بين أحجار

****

حبيت فالوحش أوهى فيك مخلبه
ياغابة النار قد أثمرت بالقلب
ياليت أبواب قلبى منك تلتهب
ياليتها دون قفل .. ليتها خشب

****

جاءوك ! جاء الصليبيون ، قاصفة

تنتقض فى أثر أخرى ، فاللظى مطر
يا قلعة النور تدمى كل نافذة
فيها ، وتلظى ، ولا تستلم الحجر
— أحسست بالذل أن يلقاك دون دمى
وشعرى وأنى بما ضحيت أنتصر (٢٤)
بغداد : ١٩٥٦م

لعلى أكتفى بهذه المقاطع المختارة من قصيدته التى تتجاوز الـ (٧٣) بيتا تترجم بصدق معاناة شعب مكبل بالقيود كالعراق ود لم يشارك كأصغر مقابل إلى جانب اشقائه.

وفى القصيدة نلاحظ تنقلات عضوية رشيقه أملتها عليه فداحة الجريمة التى اعتاد الصليبيون تكرارها لتفجر فيه طاقة محمومة متقدة عبر فيها عن موقف فكرى وإنسانى وقومى. لقد رأى الشاعر بقلبه أن هؤلاء الغزاة رغم حصدهم الأبرياء من إخوانه أهالى بورسعيد، إن أيما شهيد سقط على أرض مصر ضمن هذه المعركة، سيصبح موته بعثا وانتصاراً لا على الغزاة فحسب .. إنما على الموت أيضا ، لأن الشهداء وحدهم .. هم الأحياء ! .

ويبقى الأديب العراقى مشدود القلب إلى إشقائه فى مصر الكنانة متجاوباً مع مأساة شعب خاصة إذا كان هذا الشاعر قد تذوق مرارة الظلم والنفى عن الوطن بسبب عشقه للحرية ! ..

كان هذا الشاعر "عبد الوهاب البياتى" يفقه المعنى الحقيقى للحرية .. حرية الفرد .. وحرية الشعب .. ويحس بعمق مفردات البعد الجذرى للثورة على الظلم الذى طالماً تذوق بسببه طعوم الاغتراب عن الوطن. لذا فقد غمس قلمه الثائر بمداد العدوان الثلاثى اللصوصى ليصوغ قصيدة لكأنما حرارة مفرداتها مستمدة من لهيب وشظايا سماء وأرض بورسعيد ..

فها هى قصيدته أو "الصرخة" المترجمة (بورسعيد) .. هـذه المدينـة التى غدت عنوانها لكبرياء العروبة واستعصائها على الدخلاء، مثـار فخـر وعشق يلهج بإسمها الشعراء ..

على رخام الدهر بورسعيد
قصيدة مكتوبة بالدم والحديد
تنزف من حروفها الدماء
تهدر فى رويتها المنتصر الجبار
صيحات فجر الثأر
تطل من أبياتها بنادق الأنصار
وأعين الصغار
على جبيرة الشمس بورسعيد
مدينة شامخة الأسوار
شامخة كالنار
كالإعصار
فى أوجه اللصوص
لصوص أوربا من التجار
ومن مجرمى الحروب
وشاربى الدماء

.....

عبر جدران الموت بورسعيد
صامدة كالبحر
لا تنام
يخوض فى ساحتها السلام
معركة الحياة
تحرسها بنادق الأنصار
وأعين الصغار (٢٥)

صورة شعورية صادقة لحروف مقاتلة محترقة تولدت من أوتار الغضب والثأر ولصوص وتجار الحروب.

إن لهجة الشاعر المتوعدة عبر هذه القصيدة إنما تمثل جزء من خوضه تجربة حياة مريرة عاشها فى ظل الظلم السياسى والقهر والمنفى، والسخط الذى حفر فى وجدانه أخدوداً عميقاً على ذاته خاصة .. وما شهده وطنه .. لكن .. من بين ركام مخلفات الحرب .. ومن وراء سحب دخان مدينة تحترق ، يرى الشاعر بحسه أن ثمه رايات نصر تبدو فى الأفق يلوح بها فرسان بورسعيد أمام معركة الحياة التى حمتها بنادق أهلها الأنصار كذا أعين أطفالها الصغار الذين خاضوا تجربة قاسية أمام معركة الصمود والوجود.

تلك بعد نماذج لزفرات حرة أطلقها شعراء وادى الرافدين معبرين عن صدى موقف شعورى وفكرى وإنسانى وأدبى إزاء ما تعرض له إبناء وادى النيل الشقيق من عدوان دموى وهجوم وجيش من لصوص وتجار الحروب عام ١٩٥٦ م.

الهوامش

(١) سيد كريم : لغز الحضارة المصرية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٦ م

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، محمد بدران ، المجلد الأول جـ ٢ ص ٢٨٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ م .

(٣) هـ . ح . ويلز : موجز تاريخ العالم ، حـ ١ ص ١٤٣ ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣ م .

(٤) ول ديوارنت : قصة الحضارة ، مجلد جـ ٢ ص ٢٨٤ .

(٥) حضارة العراق : نخبة من الباحثين ، جـ١ ص ٣٧٤، دار الحرية ، بغداد ١٩٨٥م

(٦) محرم كمال : الحكم والأمثال والنصائح عند قدماء المصريين ، ص ٤ ، ط ٢ ، الهئية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ م .

(٧) حضارة العراق : نخبة من الباحثين، جـ١ ص ٣٧٤، دار الحرية ، بغداد ١٩٨٥ م

(٨) محرم كمال : الأمثال والنصائح عند قدماء المصريين ص ٤٤ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م .

(٩) رضا سيد احمد : الشرق الأدنى القديم : خال من دار النشر وتاريخ صدوره ، ولكن يرجع نشره بعد عام ١٩٩٣ من سياق مصادره .

(١٠) دونالد كارلوس ومصطفى جواد: شخصيات القدر ، القدمه ، مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٣ م .

(١١) سرد لى هذه الحكاية الشعبية الأستاذ / محمود أمين العالم .

(١٢) عمر دقاق : الأتجاه القومى فى الشعر العربى الحديث ، ص ٢٧٠ ، دار الشرق الغربى ، بيروت ١٩٨٥ م .

(١٣) هذا ما فعلته الشاعرة العراقية رباب عبد المحسن الفاطمى ، عندما دافعت عن حزب الوفد من خلال أبيات سارعت إلى نشرها صحف وفدية محايدة كالأهرام ، مما عرضتها لغضب الحكام ، وهذا مؤشر – كما أعتقد – من معطيات المد القومى فى تبادل الأدوار ، ومن قصيدتها :

لا تســـــل فى مصـــر عما فعل الخصـــــام
جنى عـــــلى البلاد ما لم يجنـــه ظـــــلام
وعطلتـــــا صحائـف وحطمـــــــت أقـلام

عائشة عبد الرحمن : الشاعرة العربية المعاصرة ص ٤٦ مطبعة لجنة التـأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ١٩٦٣ م .

(١٤) حضارة العراق : نخبة من الأساتذة ، جـ ١ ص ٢٢ .

(١٥) كريمة زكى مبارك: سيرة وحياة زكى مبارك، ص ٨٩ ، دار مصر للطباعـة القاهرة

(١٦) حضارة العراق : نخبة من الأساتذة ، جـ ١ ص ٢٣

(١٧) البرت جورانى : تاريخ الشعوب العربية ، جـ ١ ص ٢٦٦ ، سلـسلة الألـف كتاب ، القاهرة ١٩٩٩ م.

(١٨) خطب جمال عبد الناصر.

(١٩) أطلق على هذه الساحة اسم " ساحة الشهداء " وكذلك استبدال اسم جسر الجنرال مود بجسر الشهداء ، بعد زوال الحكم الملكى عـام ١٩٥٨ م . وذلـك تخليـدا لإنتفاضة طلبة الجامعة فى بغداد عام ١٩٤٨٧ م .

(٢٠) كل قصائد باكزة ، نجدها فى ديوانها الوحيد " غـداً نلتقـى " ، شـركة الأمـل للطباعة والنشر ، القاهرة أغسطس ٢٠٠٢ م .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢٢) عائشة عبد الرحمن : الشاعرة العربية المعاصرة ، ص (١) ، القاهرة ١٩٦٣

(٢٣) شوقى عبد الأمير : المختار من شعر الجواهرى ، جـــ ١ ص ١٨١ الهيئـة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ م .

(٢٤) بدر شاكر السياب : الأعمال الكاملة ، ص ٤٩٢ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧١م

(٢٥) عبد الوهاب البياتى : قصيدة بورسعيد ، ص ٢٨١ المجلد الأول ، بيروت